المصدر: الحياة
التاريخ : ٩ اكتوبر ٢٠٠٥

... عن الجريمة والحقيقة

>دلال البزري

الساسة اللبنانيون أساتذة في الانقسام السياسي. أهل فتنة... ولكن هل من فطنة؟

قاضي التحقيق الدولي في اغتيال رفيق الحريري، الالماني ديتليف ميليس، على كل مهنيته ودوليته، على كل الطلب الرسمي والشعبي عليه، إستطاع هو الآخر ان يكون موضوعاً لخلافاتهم، المضحكة... لولا الهاجس الامني.

فالآن، انشقّت صفوفهم مجدداً حول نشاط ميليس ومجرى تحقيقاته ومضمون تقريره النهائي. هناك من جهة من يستعجل النتائج، واثقاً من ان النظام السوري وحلفاءه اللبنانيين متورّطون في الجريمة. وهناك من يعمل للصبر عليها. وهؤلاء يخشون ان تكون النتيجة «سلبية»، أي ان يُتهم النظام السوري بها. وفي جعبة هذا الفريق «اجندة» لما بعد التقرير، في ما لو كانت كذلك، أي «سلبية».

والاثنان يملكان «مصادرهما» الخاصة، من تحقيقات ميليس و»تسريباته». والناطقون بلسان كليهما، او الكتاب المناصرون لأحدهما، يبوحون دائما بمعلومات نقلا عن تلك «المصادر». ولكن مع فرق: «مصادر» الاولى، المتحمّسة ضد السوريين وحلفائهم، تقول بأن هناك «أدلة دامغة» على تورّطهم. فيما «مصادر» الثانية، النافية، تقول بأن «لا أدلّة... ولا براهين». والحال ان «المصدر» لا يمكن ان يكون في حالتنا اثنين، كأن تقول مثلاً، حول جريمة إغتيال رفيق الحريري، بأن هناك لجنة التحقيق الدولية برئاسة ديتليف ميليس، وهناك مجلس التحقيق الدولي برئاسة فلان آخر من الشخصيات الدولية... فالجهة المالكة للمعلومات واحدة موحّدة: لجنة تحقيق دولية برئاسة ميليس. واذا كانت هذه المصادر الواحدة تسرّب معلومات متناقضة، فعليها حساب، أو قد تكون تلعب مع «اللاعبين» اللبنانيين في الحدود التي يجوز فيها التسريب، أو ربما تتلاعب بهم. اما اذا كانت نفس هذه المصادر تسرّب معلومات واحدة، يفصّلها المفسّرون على قياسهم السياسي، فعليهم هم حسابات...

إلا ان اكثر ما يلفت الانتباه، ومن الجانبين، هو انعدام تام للشك في تصورهما للجريمة. اصحاب الوصاية السورية والدائرون حول مجرّتهم مؤمنون بأن اسرائيل هي التي فعلتها؛ هكذا يقولون... لا يكررون هذه «الحقيقة» بدأب، لكنهم يبطنونها في «تحليلاتهم» ويمررونها احيانا في مناسبات دموية لاحقة على الجريمة. آخرها، محاولة اغتيال الاعلامية مي شدياق: نائب من نواب «حزب الله» أعلن، بعد زيارته لها في المستشفى، ان هذه المحاولة «انما هي من اعمال اسرائيل».

خصوم الوصاية على نفس الدرجة من اليقين التام بأن اغتيال الحريري عمل من اعمال السوريين. وهم ايضا لا يتوقفون عن «تثبيت» هذه الحقيقة... مع انهم ينتظرونها بفارغ الصبر، وينتجون الكليبات الفنية من أجل تسهيل سطوعها.

على خط مواز، تجري التسريبات والاقاويل والسيناريوهات... من الصحافة الاجنبية خصوصا. وكلها تتكلم عن صفقة ما

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

حول نتائج التحقيق يُنقذ النظام مقابل تسليمه القتلة. وأي قتلة، ومقابل ماذا... يبقى النظام أم يُحاصَر أم ينهار...؟

الآن، لا يستطيع المرء ان يلمّ بكافة ما في الكواليس، وإن حاول ان يتخيلها احياناً. لكن تمرير المعلومات عن الصفقات قد يكون هدفها الاصلي التاثير على النظام السوري، أو الضغط عليه في مجالات اخرى (العراق, قلسطين...). لكن شيوعها وسط الناس، وتداولها إعلامياً، سوف يكون له تأثير بالغ على تعاطي هؤلاء الناس مع نتائج التحقيق.

فالانقسام اللبناني المعتاد والصفقات الممكنة أفسدت نتائج التقرير، أفسدت الحقيقة. ولم يعد واضحاً من الذي حقاً يسعى الى الحقيقة، حثيثاً أوبطئياً. أُغرقت الحقيقة في بحر الثرثرة الانقسامية، فأُتلف معناها وهي في مهدها، وصار كأن هناك حزباً يؤمن بحقيقة حول الاغتيال تكاد تكون «خطه» السياسي، وآخر يؤمن بالحقيقة النقيض التي تكاد أيضاً تكون «خطه» السياسي.

الحزب الأول، الواثق من حقيقته، يتصور بأن ردة فعله سوف تكون مترفّعة، «حضارية» (أحد أقطاب هذا «الحزب» تكلم عن «التطاول» على نتائج التحقيق). اما الثاني، فالواضح ان «خطه» السياسي يتطلب منه أعلى درجات الاستنفار والحشد والتعبئة.

المهم ان إفساد الحقيقة سوف يبقيها، بعد إعلانها، معلّقة لأجيال ربما: فالكل، من الحزبين، الأول والثاني، متعلق بحقيقته تعلّق الانسان بالحياة، مئة في المئة، ولا يوجد واحد في المئة من الشك. هذا الطغيان لليقين لن يخمد اية نار. لا نار الشك ولا نار الانقسام. وقد تتحول نتائج التحقيق، او الحقيقة المنتظرة، الى موضوع يتعلق بهوية لبنان الذي نحن منقسمون عليه أصلا!

تذكير: التعاطي اللبناني بتقرير ميليس ذكّرني بسؤال للزميل عبده وازن منذ أشهر على صفحته الثقافية: «لماذا لا يكتب العرب روايات بوليسية؟».

الجواب أمامنا أيها الزميل: الرواية البوليسية تبحث عن حقيقة الجريمة، اي عن مرتكبها او مرتكبيها. ولكي يصل المؤلف الى المرتكب، عليه ان يشكّ بالبديهيات... بالأكثر براءة من بين المعنيين بها، وان تكون شخصية المحقق حرة بما فيه الكفاية ليعلن على الملأ ما وصل اليه من نتائج، عبر الرواية. والا فلا رواية بوليسية. يجب ان نشك، اقصد ان نشك فعلاً، لا ان نشكّك على طريقة الديماغوجيا «الممانعة» المتربّصة بالذين هم سلفاً الخونة العديمو الوطنية الذين يتجاسرون على يقينياتها. اما التسييس والصفقات فهي حالات غدر بالحقيقة وإعتداء على حرية الباحث عنها. قد تكون، براغماتياً، هي الحلول الممكنة لمأزق، لكنها ليست حتما هي الحقيقة المطابقة (المغّيبة تارة باسم نسبية الحقيقة وتارة اخرى بإسم إستحالة بلوغ الحقيقة المطلقة). وبالتالي، قد لا تكون الحقيقة المطابقة ممكنة، ولا من الممكن وجود خيال بوليسي روائي بيننا. لقد تمكّنت من الجميع ثقافة اليقين والحقائق غير الممكنة.

فالشك والحرية هما على الارجح شرطان من شروط الرواية البوليسية الناجحة، وإن كانت هناك شروط اخرى ايضاً...

www.ethraadl.com